ضوء في المجرة





د.أحمد خيري العمري

يوم، شهر، سنة

سلسلة ضوء في المجرة

يوم، شهر، سنة

د. أحمد خيري العمري

مؤلمة هي الذاكرة؛ خاصة عندما تكون جارحة مسننة، مدببة، خاصة عندما لا تغفل شيئاً، وتكون التفاصيل مثل حد السكين يجول ويصول في أعماقك..

مؤلمة هي الذاكرة، ودرب الغوص فيها مؤلم، إنك أحيانا لا تذهب إليها، لكنها تأتي إليك، وتسكنك، مثل جني ملعون يتلبسك، فأينما تذهب يظهر لك، وفي كل زاوية ومنحنى يوجد تفصيل يؤلم ويعذب، بل ويحرق، إنها الذاكرة الرجيمة التي تعذبك مثل جني يتقمصك ويخرجك عن طورك وعن أحوالك الاعتيادية، وإذا بك مخلوق آخر يتعذب بذاكرته..

* * *

يا صديق...

والمؤلم أكثر أن تكون الذاكرة التي تعذبك ليست لك، بل استعرتها من شخص آخر، (من صديق مثلا!)، وهي استعارة لا تكون بإذن مسبق، ولا تحدد بأجل معين، إنها أشبه بسرقة، بل بسرقة مرضية (الكيبتومانيك)[1] السارق فيها لا يملك من أمره شيئاً، اعترف!، والمسروق فيها كأي مسروق آخر، مسروق!

على الخيط الرفيع الفاصل بين المرض وبين الغيرة والحرص والأشياء الأخرى تتأرجح تلك السرقة الوحيدة التي لا يعاقب عليها القانون، ولكن تعاقب عليها البضاعة المسروقة نفسها؛

(١) مرض نفسي يدفع بضحاياه إلى السرقة دون دافع إجرامي واضح.

تلدغ السارق مثل أفعى جهنمية تثأر لميت لم يبك عليه أحد..

اعذرني يا صديقي، لقد سرقت ذاكرتك، بالأحرى وجدت نفسي متورطاً بسرقتها، استيقظت ذات يوم وإذا بها في دماغي، إذا بها تحل محل ذاكرتي، وإذا بها تحاسبني وتحاكمني، وتحكم علي، بل وتعاقبني، وعقاب ذاكرتك التي سرقتها يا صديق، مؤلم مؤلم، إنني أجلد كل يوم مئة مرة يا صديق، وفي كل مرة ينتهي الجلد، أكاد أراهم يحضرون الحجارة لرجمي، فأناقشهم وأجادلهم، وأتحين الفرصة لأهرب، ثم يعاد الجلد، والجلد.. والجلد..

لو أنك رأيت ظهري، لربما رأيت أثر السياط عليه، إنها ذاكرتك التي تورطت بها يا صديق، وهذه السياط كان يجب - نظرياً - أن تكون على ظهرك أنت، والحجارة التي كانوا يعدونها للرجم كانت - نظرياً - معدة لك..

لكن ذاكرتك تقمصتني، أو إني أنا الذي تقمصتها؟ فإذا بالسياط على ظهري أنا، وإذا بالألم أحسه أنا، وإذا بي غارق تماماً في ذلك كله..

اعذرني يا صديق لأني سرقت منك ذاكرتك، سيزيد من عذابي الذي أشعره أن أكون قد سرقت !، سيزيد من عذابي أن أعذب على السرقة..

أو أقول لك: اعذرني أو لا تعذرني يا صديق. وافهمني أو لا تفهمني، فالغريق لا يخاف من البلل.

* * *

لعل الأمر لا يزال غامضاً، لعلك تظنه مبالغات أدبية لموضوعي الإنشائي الجديد الذي أكتبه فتغلبني الحرفة أو العادة اللغوية..

لا يـا صديـق، صـدق أو لا تصـدق: إنـي أتألـم وأكتـوي، يخترقـني ويجتاحـني ذلـك الإحسـاس الحـارق المؤلـم، لا، ليس ألمـا معنويـاً أو نفسـياً، بـل في جسـدي هـو الألـم، **في جسـدي هـو الألـم.**

.. كيف؟.

لا أدري بالضبـط، أو إنـي أدري لكـني لا أدري التعبـير عمـا أدريـه.

أو إنـي أدري التعبير، لكنـي أخشى ألا تـدري أنت عمـا أتكلم، لكـني الآن صرت أعتقـد أنـك ستفهم مـا حصـل، ربمـا لأنـك أنت الآن تشـعر بـشيء مشـابه، ولـو بدرجـة أقـل..

مرة أخرى: كيف؟.

منـذ البدايـة: كان يجـب بالنسـبة لي أن يحصـل تقمـص مـا، كان يجـب أن أفهمـك، ولـكي أفهمـك كان يجـب أن أضـع نفـسي مكانـك، كان لا بـد للتقمـص أن يحصـل، ولـكي أستطيع أن أواصل كان يجـب أن أحـس، وأن أحـب..

لقـد أخبرتـك بذلـك مـن قبـل: إنـي لفـترة أسبوع أو أكـثر، كنـت عاجـزاً عـن تقبيـل أولادي، كان يقـف بيـني وبينهـم ذلـك التقمـص؛ لمـاذا ليـس عنـدك أولاد؟ لمـاذا تحـرم أنـت مـن هـذه النشـوة الـتي أحسـها عندمـا أحتضنهـم؟. وعندمـا أكـون بـين أهـلي وأفـراد عائلتي؟

في تجمـع العيـد مثـلاً، **كنـت تـبرز أمامـي وأنـت وحـدك في شـقتك، تنتظـر هاتفـاً يـأتي ولا يـأتي،** فـإذا بذلـك ينغـص علي

التجمع، وإذا بي أنغص عليهم جميعاً هذا التجمع! وأنفرد بعدها وحدي ولا أنتظر هاتفاً يأتي ولا يأتي..

كل ما أجبرتك الظروف الحالية على الحرمان منه، صرت لا أجد له طعماً، بلى، بل صرت أجد له طعماً كالسم الزعاف أتجرعه ولا أكاد أسيغه.

.. في كل تفاصيل حياتي، كنت أجد نفسي وقد تقمصتك وتقمصت ظروفك، وكنت أجدك في كل مرة، هناك في عمق التفاصيل وعلى سطحها وبين ثناياها وخباياها..

على غرابة ذلك، لا أجد نفسي خجلاً من الاعتراف به، لو كان الصدق متوافراً في العلاقات بين البشر كما هو الزيف والرياء والمصلحة العابرة، لما كان ذلك غريباً على الإطلاق، ولكن الصدق - ويا للأسف - هو الأقل تداولاً، والأكثر ندرة والأبعد مثالاً في العلاقات الإنسانية بين البشر، وعندما يختفي الصدق ما الذي يبقى؟

عندما يحذف الصدق من الصداقة ما الذي يبقى حقا؟.

لا شيء طبعاً، غير حرف الألف.. لا يسمن ولا يغني من جوع، ولا يرفع ولا ينصب.. ولا يجر، وغير تاء مربوطة لا ترتبط حقا بشيء..

.. وعندما يكون الله بين أعيننا، وفي أعيننا، لا مفر من الصدق، لا مهرب منه، على الرغم من أنه مؤلم وحاد وجارح، لكن، عندما تكون العلاقة في الله ولله وبالله، لا مفر من الصدق، الصدق الذي هو جوهر الصداقة.. رغم أنه أكثر شيء مؤلم فيها.

فالصداقة، بعد كل شيء يا صديق، ليست قضاء الأوقات الممتعة معاً، وتزجية الوقت وتبادل الأحاديث الطريفة والمسلية، أقول: حتى لو كان ذلك كله حلالاً معاً، فالصداقة -عندما تكون حقاً- شيء آخر، إنه أن تصدق لدرجة أن تشعر وأن تستشعر وأن تتقمص، إنه أن تصدق لدرجة أن تنفصم عن نفسك الأصلية، إلى نفسك الأخرى التي هي نفس صديقك، بل أن تصدق لدرجة التمازج التام في أعماقك بينك وبين نفسك الآخر..

إنه أن تكسر الحاجز، أن تقتحم العقبة في أعماقك، إنه أن تفك رقبتك من أنانيتها، إنه أن تحطم سور الصين العظيم الذي يحول بينك وبين الآخر..

والأخوة في الله هي البعد الأرق لتلك الصداقة الصادقة الصدوقة، إنها الامتحان الأصعب والاختبار الأدق، بعيداً عن كل المجاملات الروتينية التي يتشدق بها الناس في الشوارع: يا أخي يا أخي - يقولونها وربما لا يقصدون شيئا - لكن الأخوة شيء آخر، في الأخوة التقليدية؛ أخوك البيولوجي هو قدر لا فرار منه، بالضبط مثل الموت والحياة والأم والأب، لا خيار في هذه الأمور، كذلك إخوتك مهما حدث لن تستطيع اختيارهم، عليك التأقلم مع اختيار القدر فقط.

لكن الاخوة الأخرى؛ أنت بنفسك تخوض هذا القدر، تختاره، وتكون مسؤولاً عنه، في الأخوة البيولوجية تعاني أمك المخاض فتضع لك أخاً، لكن مع الأخوة الأخرى - الأخوة التي في الله - فإنك أنت بنفسك تعاني المخاض، وعندما يتألم هذا الذي هو أخوك، فإن (الآخ) آهة الألم ستخرج منك من

أعماقك قبل أن تخرج منه ولهذا ذاته، من أجل هذه (الآخ) يصير أخاً لك وتصير أخاً له.

.. ومن أعماقي - عندما تقمصتك - طلعت تلك الآخة الهائلة الرهيبة الصادرة عنك، ولأنها كانت صادقة جداً حقيقية جداً، عالية جداً، فقد تلفت خوفاً من أن تكون آهتي قد صعقت كل من في السماوات والأرض.

* * *

كل ما سبق سيكون بالنسبة إلى البعض هو أكثر ما سمعوه غموضاً وغرابة، أو لعله سيكون أسخف ما سمعوه من نكت سمجة - لا تضحك أحداً.

رغم ذلك أقول لك: لم أكن أوضح في أي وقت مضى مني الآن.

لم أكن أكثر جدية ولا أصدق في أي وقت مني الآن.

أما هم؛ أولئك الذين لا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون فإنهم مساكين، لم يمر الصدق فيهم على علاقاتهم، لم يقتحموا العقبة في أعماقهم، لم يكسروا ذلك الحاجز الذي يحول بينهم وبين أنفسهم، لم تخرج (الآخ) الصادرة عن إخوانهم من حناجرهم، فما عرفوا أخوة لهم ولا أصدقاء في هذا العالم الموحش، إنهم مساكين! مساكين لدرجة أنهم لم يعرفوا كم هم وحيدون ومنعزلون رغم زحام الناس من حولهم..

مساكين أولئك؛ لم يعرفوا واحدة من متع الحياة الحقيقية

والنـادرة، أقـول ذلـك رغـم لسـع السـياط الـتي أحسـها عـلى ظهـري والـتي كان يفـترض أن تكـون عـلى ظهـرك أنـت.

* * *

نعم يبدو أنني كعادتي أكثرت بعض الشيء من كل شيء.

لقـد شـعرت أكـثر ممـا يجـب، واستشـعرت أكـثر ممـا يجـب، وأحببـت وتقمصـت أكـثر ممـا يجـب، وانتهيـت إلى أن وجـدت ذاكرتـك تحتلـني وتعذبـني، وهـذه السـياط ولسـعها الحـارق عـلى ظهـري.

.. وبطريقـة مـا أعـترف أنـني كنـت أحـدس أن شـيئاً كهـذا سـيحصل، لذلـك سـددت نفـسي عـن التفاصيـل ولـم أسـألك يومـا عـن شيء، أنـت الـذي حكيـت عموميـات الأمـر وقليـلاً مـن التفاصيـل..

لكـن الذاكـرة الـتي تتقمصـني تنهـض مثـل تنـين متعـدد الـرؤوس فتأخـذ العموميـات وتنسـج التفاصيـل، وتبالـغ بهـا، وكل تفصيـل أمـر بـه يصـير سـوطاً تلهـب بـه ظهـري..

ذاكـرتي لا تغفـل شـيئاً، إذا أعوزتهـا التفاصيـل تختلقهـا تصنعهـا تؤلفهـا (مـا الفـرق حقـا؟) أيهمـا مؤلـم أكـثر؟. التفاصيـل الحقيقيـة الـتي حصلـت يـوم كان مـا كان أم التفاصيـل الـتي تبتدعهـا ذاكـرتي الرجيمـة الـتي تقمصتـك؟؟.

لا أدري! كلهـا مؤلمـة، كل السـياط عـلى ظهـري مؤلمـة، كلهـا حارقـة، وكلهـا تـترك أثـراً..

.. في يوم، في شهر، في سنة، حصل ذلك يا صديق.

ربما لن تسعفك الذاكرة لا باليوم ولا بالشهر ولكنك على الأكثر ستذكر السنة.

ما الفرق؟. في يوم ما من شهر ما في سنة ما حصل ذلك الشيء يا صديق.

.. ذلك الشيء الذي بدأت به تلك الرحلة الكئيبة التعيسة..

ربما لا تذكر اليوم ولا الشهر ولا حتى السنة، ولكن هناك، في مكان ما سجل فيه كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها حتى التفاصيل الدقيقة، الدقيقة، اللحظة الفلانية والدقيقة الفلانية من الساعة الفلانية في اليوم الفلاني، حصل ذلك الشيء.

.. ولأني أتقمصك كما يجب، فإني أصرخ، بدلاً عنك: ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها؟؟

.. وعندما يضعونه في شمالي بدلاً عن شمالك أحاول عبثاً أن أخفيه وراء ظهري بدلاً عن ظهرك، فرقاً جزعاً مما أعرف أنه فيه..

.. وفي ذلك الكتاب سيكون هناك التاريخ المحدد لذلك الشيء الذي حدث لك، وحدث بك، وحدث معك، والذي بدأت به رحلة السقوط تلك.

في يوم، في شهر، في سنة، لا اعرف بالتحديد أياً منهم، بدأ ذلك السقوط كله..

في يوم، في شهر، في سنة، اقتحمت العقبة الفطرية والحاجز المنيع الموجود في أعماق كل منا وبدأت بذلك السقوط الذي

سيستغرق من عمرك عمراً.

في يوم، في شهر، في سنة، حصل في حياتك ذلك الحادث الحزين: **حصلت معصيتك الأولى.**

* * *

في حياة كل عاص معصية أولى هي الباب الذي فتح أمامه كل المعاصي التالية.

المعصية الأولى هي المعركة الأهم وربما الأكثر حسماً في حياة كل منا.

لا يعني ذلك قطعاً أن نتيجتها نهائية وقاطعة، لكن يعني أن الأمر يكون أصعب دوماً بعد أن يحصل السقوط الأول، وسيتطلب الأمر من أجل إغلاق الباب جهداً أكبر ومجاهدة أعظم..

المعصية الأولى هي ذلك المنعطف الذي يحصل في حياتك، الخطيئة الأولى هي ذلك المطب (الفخ)، الباب المفتوح على هاوية عميقة، وحده الله في عليائه يعلم قرارها.

المعصية الأولى هي المعصية الأصلية، الخطيئة الأصلية التي تسيطر علينا وتحرك مسار حياتنا، لكنها لا تكون كذلك إلا بعد أن نقترفها، إنها لا تكون أصلية، إلا بعد أن تكون أولى، تقترفها أولاً ثم تصير جزءاً منك وتسير معك في حياتك، أحياناً تسيّر حياتك..

المعصية الأولى هي تلك التجربة التي سنظل ننكرها طيلة حياتنا، ربما سنحاول التنويع في معاصينا لكن التجربة الأولى

ستظل تدمغنا وتصمنا بطريقة أو بأخرى...

.. لو أننا راقبنا معاصينا التي استمررنا عليها (وما من أحد منا يخلو من المعاصي) لوجدنا أن طابع المعصية الأولى وتفاصيلها ونكهتها ظلت تطبع كل معاصينا التالية..

مع العمر، وبعد السنوات يظل شبح المعصية الأولى مطلاً كخيال مآتة في الحقل الخرب شاهداً بارزاً شاخصاً على تلك التجربة التي تستمر وتستمر وتدخل بالتدريج لتصير جزءاً أصيلاً من تركيب الشخصية..

.. ويظل الزوج بعدما تاب وأناب، أو على الأقل لبس قناع التوبة، يظل يريد من زوجته الفاضلة أن تكون كذلك في كل مكان إلا في السرير؛ حيث يريدها أن تنافس أولئك اللواتي احترفن إثارته في تجاربه الأولى..

.. على سرير الزوجية تظل المعصية الأولى وتفاصيلها وثناً بارزاً في ذهن الزوج: **ها هو يقارن، ها هو يتذكر، ها هو يطالب، ها هو يتأفف، ها هو يتشاجر، ها هي المعصية الأولى تنتصر رغم الزمن**، ورغم التوبة تظل المعصية الأولى هناك في الأعماق تمارس دوراً قيادياً لا يتخيله أحد..

.. وتظل المعصية الأولى، ذلك السقوط الأول البعيد في حياة كل منا باباً قد يفتح الأبواب نحو المعاصي المتكررة والمستمرة، ومطباً قد يجرنا نحو الفخ الأعمق والأكثر سقوطاً..

.. وتظل المعصية الاولى هناك في الأعماق السحيقة، في الذاكرة البعيدة، في الأصقاع النائية..

.. وتظل كل نفس بما اقترفت من معصية أولى رهينة.

* * *

بين الخطأ والصواب خيط قد يكون رفيعاً لكنه خط فاصل كذلك الخيط الذي يفصل بين الليل والفجر، قد يودي بحياة متجاوزه.. قد يكون مميتاً.

بين الحلال والحرام حد، بين البكارة وانتفائها غشاء، محض غشاء دموي لكن معانيه مهمة وآثار زواله قد تكون مدمرة..

بين الخطيئة والامتناع عنها حاجز، عقبة؛ هي في جوهرها ذلك الفرق بين الإنسان والبهيمة..

.. وبين أن تكون إنساناً وتظل إنساناً، وبين أن تكون بهيمة كالأنعام، بل أضل سبيلاً، اختيار بسيط (واضح): هل تستسلم لغريزتك كما الأنعام والبهائم والقطط والكلاب، أم إنك تقف كالسد الصامد أمامها لتروضها وتطوعها وتصير أمةً لك بدل أن تكون عبداً لها؟.

* * *

..هذه الخيوط الرفيعة، والحدود، والفواصل، والخطوط الواضحة، والحواجز، والعقبات، والاختيارات المصيرية عند مفترق الطرق كلها للأسف -أحيانا- لا تكون كافية لبعض الناس الذين يتجاوزون الخيط الفاصل والحد القاتل والغشاء الزائل ويلجون من ذلك الباب الذي يفتح لهم هوة السقوط.. فيسقطون.. ويسقطون.. ويسقطون..

في كل يوم، من كل شهر، كل سنة، يحدث ذلك وللألوف، بل الملايين للمرة الاولى..

في كل يـوم، مـن كل شـهر، مـن كل سـنة، هنـاك الملايـين الذيـن يسـقطون للمـرة الأولى في حياتهـم، فيقترفـون خطيئتهـم الأولى، معصيتهـم الأولى، فيظلـون حبيسـين داخلهـا، بمـا كسـبوا مرتهنـين..

.. ولكـن رغـم ان ذلـك يحـدث كل يـوم، إلا أني أجـدني وذاكـرتي الرجيمـة تلسعني بالسـياط عـلى ظهـري، أتجـه نحـو يـوم مـا، مـن شـهر مـا، في سـنة محـددة مـا..

لا أعرف اليوم، ولا الشهر، ولست متأكداً من السنة..

لكـن ذلـك كلـه موجـود في السـجلات فـوق... **يـوم مـا، مـن شـهر مـا، في سـنة مـا،** مـن دون كل الأيـام، مـن دون كل الشـهور، مـن دون كل السـنين، يـوم واحـد مـن شـهر معـين في سـنة مـا تـضرب السـياط عـلى ظهـري..

إنه يوم سقوطك الأول والكبير... يا صديق..

* * *

عـبر السـنين وكلمـا قلبـت في دفاتـر ذكريـاتي وأوراقي، كنـت أجـد في عقـد الثمانينـات مـن حيـاتي أحـلى الذكريـات وأرقهـا وأعذبهـا..

هنـاك كانـت بـراءتي، هنـاك كان حسـن ظـني وآمـالي الكبـيرة وأحلامـي الصغـيرة.

هنـاك كان الأصدقـاء الذيـن مـا ظننـا يومـاً أنهـم سـيذهبون، وأنهـم سـيتغيرون، ثـم أنهـم سينسـون..

هنـاك كان يبـدو العالـم واضحـاً جـداً مثـل صبـاح يـوم

مشمس، أو مثل فيلم رسوم متحركة للأطفال، الشر فيه واضح ويرتدي السواد، والخير فيه واضح ويرتدي البياض..

لم يكن هناك شيء غامض، حتى الأسئلة الكبيرة كانت تسلينا أكثر مما كانت تحيرنا، كنا نزجي الوقت ونحن نثرثر عن الوجود وغوامضه متقمصين حيرة لا تخصنا ومتلبسين أدواراً تسلينا ولكن لا تكاد تعنينا..

.. كل شيء كان بسيطاً واضحاً ونقياً.

.. كل شيء كان شديد الوضوح والسطوع، الخير، الشر، الأصدقاء ومراهقتهم وصحبتهم وبراءتهم..

حتى ملامحهم كانت أشد وضوحاً..

تلك كانت الثمانينات، وعبر السنين كلما خنقتني العبرات كنت التجأ إلى ذاكرتي وأقلب في أوراقي فأجد في ذكريات الصداقة والبراءة والوضوح المطلق بلسماً وقتياً عابراً..

أقول: تلك كانت الثمانينات إلى أن تورطت بالسرقة الوحيدة التي لا يعاقب عليها قانون، عندما تقمصت ذاكرتك..

اليوم احترقت ذاكرتي، وضاعت أوراقي، ولم يعد لي ذكريات في ذاكرتي، لم يعد عندي ذاكرة..

من عقد الثمانينات كله لا أتذكر سوى يوم واحد لم أعشه، لكني أذكره مثل أخطبوط جهنمي يلتهم ذكرياتي؛ يوم واحد، من عقد كامل، يوم واحد من شهر ما، في سنة ما، من عقد كامل..

إنه اليوم الذي سقطت فيه للمرة الأولى..

يوم ما في عقد الثمانينات.

* * *

ثم كانت التسعينيات، وفيها عرفت الحياة الحقيقية، ودخلت معتركها وتخرجت من مدرستها، وسجلت ذاكرتي القحط كما الخصب، والغدر كما الوفاء، الخوف كما الأمان، والشك كما الإيمان..

.. وفي التسعينيات عرفت أن الحقيقة لا تختص بلون واحد، وأن الشر قد يتخفى خلف أكثر الألوان نقاء، وأن الخير قد يسكن خلف كل ألوان الطيف..

.. وفي التسعينيات عرف ظهري الطعنات، وعرفت أنه كلما زادت الضربات الآتية من الخلف اندفعت أنا إلى الأمام، وفهمت أن الضربات التي لا تقتلني سوف تقويني..

وفي التسعينيات تدحرجت على سلالم الشك واليقين، ولمحت اليقين مرة، وطاردته مرات وتمسكت به وعرفته وعرفني، واخترقته واخترقني..

.. لكن من ذلك العقد الحافل كله لا أذكر اليوم سوى شيء واحد يجرحني ويحز في رقبتي من الوتين. لقد كان عقداً آخر لم تفعل فيه سوى أنك تابعت السقوط؛ ذلك الذي بدأته في يوم ما، من شهر ما، في سنة ما، قبلها في الثمانينات..

عقد كامل آخر تبدل فيه العالم وتغيرت خرائطه واندثرت فيه قوى عظمى وحلت محلها أخرى، وتبدل الناس، وانهارت عملات ونهضت أخرى..

.. عقد كامل مر عليك دون أن تتبدل، لقد قضيت التسعينيات كلها وأنت ماض في ذلك السقوط المعتم إلى بئر جاف لا قرارة له..

عشر سنوات أخرى مرت عليك أيها الصديق وأنت تسقط.. وتسقط.. وتسقط..

إنه شبابك الذي أفنيت زهرته، وعمرك الذي أتلفته، ووقتك الذي أسرفته في اللهو العابث الماجن.

.. ورغم أن ذلك استمر حوالى 17 عاماً من عمرك **وهذا كثير - كم 17 عاما لدينا في العمر كله؟.** إلا أنه بدأ بالتحديد من يوم واحد، في شهر واحد، من سنة معينة..

يوم واحد فتح لك باب السقوط لسبعة عشر عاماً..

* * *

.. ولماذا يعذبني، وبالسياط على ظهري يجلدني وهو يحدث كل يوم.

ففي كل يوم، من كل شهر، من كل سنة هناك ناس يسقطون، يفتحون باب الهاوية للمرة الأولى ويرمون بأنفسهم في تهلكة قد تستهلك أعمارهم كلها..

.. في كل يوم يحدث ذلك، الآن في هذه اللحظة، بالتأكيد يحدث ذلك، لكن يومك وسقوطك هو الذي يؤذيني من دون كل الأيام وكل السقطات.

-لماذا ترى يا صديق؟.

ربما لأني عرفت نقاء سريرتك وصفاء فطرتك وذلك الصدق النادر الذي يميزك..

وربما لأني عندما احتككت بمعدنك انطلقت شرارة مضيئة كشفت لي عن أصالته، رغم أني احتككت به بعد 17 عاما طويلة من السقوط، وكان لا يزال أصيلاً مضيئاً رغم كل ما مر عليه من سقوط ومعاص وكبائر وعتمة..

.. وربما لأن سقوطك يا صديق في ذلك اليوم الحزين الغابر هو رمز لسقوط كل الأشياء النبيلة الأصيلة في حياتنا، سقوط يثبت أن الصحيح لا يصح دائماً بل قد يغلط ويخوض ويتوغل في الغلط ويموت وهو غلطان..

سقوطك يذكر بأن الناس الطيبين قد يضلون طريقهم في هذه الحياة حتى تجدهم فجأة في جهنم التي ستظل تقول هل من مزيد؟..

سقوطك يذكرني بأن جهنم ستضم في النهاية جداً الصالح والطالح، ما دام الصالح لم يعرف كيف يحافظ على صلاحه، وهو أمر يخيفني شخصياً..

سقوطك يذكرني بالسقوط الأول المخيف الذي أنزلنا من الجنة إلى الأرض، عندما سقط أبونا آدم وكان ما كان..

.. وكان آدم إنساناً حقاً؛ معدنه أصيل وفطرته نقية وسريرته صافية، لكنه سقط، وتلك كانت الخطوط الأولى لسيناريو السقوط الذي سيتكرر فيما بعد لملايين المرات عبر آلاف السنين..

.. والمؤلم ليس أن البشر يسقطون، بل أنه حتى الجيدون منهم، أولئك الأنقياء والصادقين يسقطون..

.. والأكثر إيلاماً أنهم قد يسقطون، ويسقطون، ويستمرون بالسقوط ولا يقومون من سقطتهم، وينتهي بهم المطاف إلى قعر جهنم..

نعم ليس المؤلم أن البشر يسقطون، فهذا طبيعي ومتوقع، بل إنه جزء من طبيعة المسألة؛ لا بد أن يكون هناك من يسقط ليصير حطباً ووقوداً في جهنم، هناك ناس في أعماقهم الشر حسم المسألة وتغلب على الخير الى الأبد..

نعم يوجد ناس هم كالدواب، بل هم أضل سبيلاً؛ إنهم صم بكم لا يعقلون..

إنهم أولئك الذين (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) [الأنفال 23].

لم يعلم الله أن فيهم خيراً، الشر حسم المسألة لذلك لم يسمعهم كلماته، لم يعرض عليهم آياته، لا فائدة ترجى من ذلك وحتى لو حدث وسمعوا (لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) الأمر محسوم سيستهزئون أو سيستنكرون وسيلقون بنكتة سخيفة، أو تعليق سمج، وسيعرضون ويواصلون سقوطهم؛ إنهم حطب جهنم، لا فائدة ولا أمل في تغيير هويتهم..

حقيقة لن تتأسف ولن تتألم عليهم، إن سقوطهم جزء من العدالة التي تلف هذا الكون، لابدَّ أن يسقط في جهنم أحد..

لكن المؤلم والمؤسف والمحزن أن هؤلاء عندما يسقطون

يجرون معهم آخرين، أقراناً وأصدقاء وأقارب يسقطون أيضاً رغم أن معادنهم أصيلة مختلفة ونقية عن حطب جهنم، لكنهم غافلون، ومن غفلتهم سينزلقون ويسقطون... والمؤلم أن أغلبية الساقطين يكونون من هؤلاء الساقطين بالاستعاضة، الذين تعلقوا بغفلتهم وتزحلقوا بها إلى أن سقطوا في أسفل سافلين..

رغم أنهم أصلاً لم يكونوا من السافلين..

.. ومن هؤلاء كنت أنت يا صديق وكان سقوطك المؤلم المظلم المريع..

سيناريو السقوط الأول في يوم، في شهر، في سنة، تفاصيله تهاجمني بلا هوادة..

ورغم أن فعلة السقوط يفترض أن تكون مثيرة لو كانت جزءاً من فيلم أو رواية، إلا أنني أتأمل السيناريو بحزن وبألم.

رغم الجنس، لا إثارة، بل حزن شفاف وغامض يلف ويغلف المشهد بأكمله..

ولو أنك تذكرت السقوط والضياع والتخبط والقذارة التي تلت ذلك المشهد كله لما شعرت بإثارة، فقط بحزن، بندم فقط، وربما سيثير المشهد فيك الغثيان كما يثير في داخلي الآن.

بدأ المشهد قبل أن يبدأ بفترة، وكل هذه المشاهد تبدأ في الواقع قبل أن تبدأ... وهذه البداية في الحقيقة هي أكثر تفاصيل السيناريو إيلاما وإثارة للحزن.

.. بدأ المشهد يا صديق من تلك الحقيقة الحزينة المفجعة التي انزلقت إليها **عندما انقطعت عن الصلاة..**

.. لم يعلمك أحد في بيتكم الصلاة، كما قلت: إنك لا تكاد تذكر حتى من علمك الصلاة، ولم يكونوا في البيت عندكم يعرفون حتى اتجاه القبلة كما ذكرت لي، وعندما كان يأتي أحد لزيارتكم ويريد أن يصلي كانوا ينادونك أنت لتوليه القبلة.

.. صدق أو لا تصدق، لم يعلمك أحد: **إنها فطرتك، إنها سريرتك النقية، إنه معدنك الأصيل الذي راهنت عليه يوم كان ما كان..**

صدق أو لا تصدق، لم يعلمك أحد، لكن في داخلك كانت لا تزال نفخة الروح الإلهية التي نتوارثها من عهد آدم، لم تكن قد دفنت تحت ركام الشهوات والمعاصي والذنوب..

كنت لا تزال قريباً منه لذلك لم يعلمك أحد الصلاة، كنت تصلي دون أن يقول لك أحد خارج نفسك: صَلِ..

.. لكن ذلك الزمان يبدو بعيداً جداً الآن، وفي لحظة ما تقدمت أنتَ لتقطع ذلك كله وتنهيه.

في لحظة سهو، في لحظة غفلة، في لحظة ضعف، حصل ما كان المقدمة الطبيعية لمشهد السقوط الاول.

في لحظة تمكن فيها الشيطان منك، شيطان الغفلة والتفاصيل الصغيرة بدأ ذلك السيناريو كثير التكرار..

من حقيقة أن صلاتك وقتها لم تترجم عملياً لتصير انتماء للجماعة، لصلاة جماعة تشكل الإطار الذي يكون ويحمي أفراده..

ظلت صلاتك فردية منفردة، وكان ذلك هو الخطأ الأول الذي مكن إبليس من أن يجرك الى ما جرك إليه فيما بعد، إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية وكنت يا صديق خروفاً طيباً وأصيلاً، ولكنك لم تنضم للقطيع، وهذا ما سهل على الذئب أن يأخذك ذبيحة عيد، والتهمك كما يلتهم كل الغنم القاصية عن قطيعها..

.. في لحظة سهو، لحظة غفلة، لحظة ضعف، لحظة عزلة، حدث ذلك: انقطعت عن الصلاة..

وكان إبليس يتربص بك يا صديق..

* * *

تذكر ولابد تلك الصورة المفجعة التي استلمناها معاً عبر البريد الإلكتروني: صورة ذلك الطفل السوداني الجائع، بل المتضور جوعاً الذي يزحف على الأرض لأنه لا يقدر على الوقوف على قدميه باتجاه مخيم اللاجئين والذي لا يزال أمامه كيلومتر واحد من الزحف ليصل إليه..

وفي الصورة، على بعد أمتار من الطفل يقف ذلك الطائر الجارح (النسر أو الصقر لم أعد أدري) ينتظر أن يموت الطفل حتى ينقض عليه، لأنه لا يفترس الأحياء بل يأكل الجيف..

هزتك الصورة وهزتني ولابدَّ، وهزنا أكثر التعليق المصاحب لها والذي يشير إلى أن المصور الغربي الذي التقط الصورة انتحر متأثرا بما شاهده في إفريقية من مآسٍ..

رغم ذلك أرى الصورة تهزني أكثر وتذكرني بمشهد آخر

يتكرر كل يوم ولا ينتحر أحد من أجله، رغم أنه مأساوي أيضاً بطريقة أو بأخرى..

.. انظر إلى المشهد مرة أخرى، الفريسة تزحف وتكاد تموت، لكن الطائر الكاسر لا يهاجمها إلا بعد أن تموت. يتربص بها حتى تموت، بعدها ينقض على الجثة (الجيفة) ليلتهمها، إنها أخلاق الكواسر!.

ذلك الطفل السوداني والذي لعله لم يكن طفلاً جداً بكل المعاني، أولاً لأنه لم يتمتع بطفولته، وثانياً لأنه ربما كان قد تجاوز عمر الطفولة، لكن ظل نموه معوقاً بسبب الجوع والأمراض، ذلك الطفل الأسود والذي ربما مات بعد دقائق من التقاط الصورة وخلال ساعات كان قد انتهى تماماً في بطون الكواسر، ذلك الطفل يذكرني بآخرين، ليسوا سوداً بالضبط وليسوا أمواتاً (بيولوجياً على الأقل) ولعلهم لم يتضوروا جوعاً قط، ولم يشهدهم نسر كاسر قط، لكنهم أيضاً بطريقة ما يشبهون ذلك الطفل في رحلة زحفه المميتة إلى مخيم اللاجئين..

.. إنهم أولئك الآلاف (بل الملايين) **من البشر الذين يصلون ولكنهم لا يقيمون الصلاة، إنهم يصلون،** نعم ولكن كما تدري -وكما ربما الملايين- صلاتهم متقطعة أحياناً، أو متأخرة دوماً، أو محض حركات روتينية في أحسن الأحوال، ودوماً هناك ذاك الطابع الفردي لهذه الصلاة، إنها بلا جماعة، بلا جامع، بلا انتماء، بلا قطيع يحمي الغنمة القاصية، وهذا يفسر كل ما سيحدث لاحقاً.

إنهم ليسوا بالضبط على الطريق الخطأ، لكن مسيرهم

عليه ليس مستقيماً، إنهم بالضبط يزحفون مثل ذلك الطفل الذي يحتضر زحفاً وهو يتوجه الى حيث يجد لقمة واحدة تنقذه من الموت..

إنهم يزحفون ببطء وبتعثر مادامت صلتهم بالله - صلاتهم - لا تقيمهم ولا تقويهم، خليطاً بين السهو والغفلة والعزلة..

انهم يزحفون. بيولوجياً هم أحياء، لم تمت قلوبهم بعد لكنها ضعيفة تنبض ببطء، دقاتها تتباعد وتتباطأ.

.. ويقف الشيطان الكاسر الذي لا يهاجم إلا الموتى ولا يأكل إلا من الجيف، ينتظر موتهم الحقيقي لا البيولوجي ينتظر أن ينقطعوا عن الصلاة ليهاجم ويفترس..

نعم... دوماً هناك ذلك الجدل حول ماهية الموت الطبي، هل هو السكتة الدماغية أم السكتة القلبية، لكن معنى الموت الحقيقي هنا يختلف؛ إنه السكتة الروحية، إنه أن ينقطع قلبك لا عن التقلص والضخ، بل عن الاتصال بربه أن يكف عن الاتصال بخالقه..

الموتى حقاً ليسوا أولئك الذين نشيعهم ونسير في جنازاتهم ونصلي عليهم ثم نهيل عليهم التراب، لكن الموتى هم أولئك الذين لا يصلون ويدفنون أنفسهم تحت التفاصيل الصغيرة واللهو والعبث والمعاصي والأعذار والحجج، الموتى هم أولئك الذين يسمعون الآذان خمس مرات في اليوم ولكنهم يا للأسف يسدون ويصدون ويتمنعون.

إنهم بيولوجياً يعيشون لكنهم (أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) [النحل:16/21].

أترى الصورة الآن؟. إنها ليست الأزمة في إفريقية، إنها أزمة كل زمان ومكان.

إنه ليس الطفل المحتضر زحفاً، إنه كل الناس الذين يصلون ثم ينتحرون، ينقطعون عن الصلاة..

إنه ليس الطائر الكاسر المتربص بفريسة يصر أن تكون جيفة، بل هو إبليس الذي لا ينقض إلا على قلب ميت، قلب لا يصلي.

(زووم) على الصورة اكثر.

أفهمت؟.

* * *

.. وعندما حدث ذلك كان منطقياً أن تحدث أشياء أخرى، لقد كان ذلك وعداً مفعولاً.

(وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) (الزخرف:36) معادلة محسومة، وعداً مفعولاً، من يتعامر عن ذكر الله، من يقطع صلته بالله سبحانه وتعالى، من يقفل على قلبه ويرمر بالمفتاح في بئر الغفلة والمعاصي والذنوب فلابد أن ينقض عليه ذلك الشيطان. واللفظ في الآية موجع مثل رصاصة تخترق عظامك وتتشظى الى آلاف القطع في داخلها فـ(نُقَيِّضْ) هنا تأتي من انقضاض - القيض - الطائر الجارح الكاسر لا غيره على البيض ليختطفه، والصورة القرآنية هنا مشابهة لدرجة التطابق مع صورة الطفل السوداني السابقة، الشيطان ينقض عليه، بل على كل من يغلق عينيه

وقلبه عن الله، فإذا به ملازم له كل ساعة، كل لحظة، إذا به قرينه..

إنها المعادلة المحسومة، متوازنة الأطراف، إذا أصابك ذلك العشو الذي يعميك عن الله الماثل في كل ذرة من ذرات الكون، إذا أخرجت الله من قلبك وذكرك وذاكرتك وضميرك لابدَّ أن (ينقض) عليك ذلك الشيطان القرين.. لابد أن تسقط له فريسة..

إنها قضية محسومة، لا نقاش في هذا، لا جدال، لا خروج عن القاعدة..

.. وهل تريد (زووم) على الصورة أكثر..

نعم... لكن الصورة ستفوّت قليلاً من الزمن، لن ترى ماذا سيحصل فوراً بعد الانقضاض المحتوم المحسوم، ولكن ستنقلك إلى موقف آخر (حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ) [الزخرف 43/38].

نعم سيأتي مثل هذا الوقت والموقف، وستتمنى وسنتمنى جميعاً لو أن بيننا وبين هؤلاء الأقران بعداً هائلاً، ليس بالضبط بقدر المسافة بيننا وبين الشمس بل ضعفها، بعد المشرقين.

نحن الذين كنا نلازمهم ولا يمضي شروق وغروب دون أن نلتقي بهم وندخل بيوتهم ويدخلون بيوتنا، وتجمعنا بهم العشرة؛ الملح والزاد والذكريات..

نحن الذين كنا نعدهم أصدقاء العمر، سيأتي علينا حين

من الدهر نتمنى لو أن بيننا وبينهم بعد المشرقين.

أليست هذه نذالة منا؟. ربما.. لكن الأسوء من كوننا أنذالاً أن أمنيتنا هذه ستأتي متأخرة قليلاً (ليس قليلاً جداً بعد كل شيء) لكن بالتأكيد بعد فوات الآوان.

وسيأتي الجواب حاسماً قاطعاً (وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) [الزخرف: 43/39].

و(زووم) على الصورة اكثر.

* * *

للشيطان ألف وجه، ولا واحد منها يمتلك قرنين في الرأس، ولحية شريرة مدببة كتلك التي نراها في الصور التقليدية..

.. ولا واحد منها يبدو شيطانياً جداً، في الحقيقة، معظمها ستكون أليفة ومألوفة، ربما محبوبة وجذابة، بل إن بعضها ستحمل ملامح ملائكية في منتهى البراءة، منتهى النقاء.

بعض هذه الوجوه ستكون في منتهى الجمال والوسامة، لن تصدق قط أن الله خلقها وأبدع في صنعها ثم يمكن أن يرمي بها في جهنم..

.. وبعض هذه الوجوه ستكون ودودة، قريبة، شاركتك بعض أحزانك، وربتت أحياناً على كتفك، وأعطتك الكتف لتبكي عليه.

للشيطان ألف وجه، ولا واحد منها وجه الشيطان!.

.. ولو أنك أردت أن ترى الشيطان فاذهب إلى (ألبوماتك) القديمة وقلب في صورها وفي أوراق ذكرياتك وذاكرتك وحدق

في ذلـك كلـه بإمعـان وتركـيز.

.. وتأمـل وجـوه الأصحـاب والخـلان والأقـران وحـاول أن تتذكـر مـن منهـم جـرك معـه إلى معصيتـك الاولى؟ مـن منهـم أخـذك أسـفل سـافلين؟. مـن منهـم سـحبك مـن عنقـك وألقـى بـك في تلـك الهاويـة الـتي أكلـت مـن عمـرك ربمـا ربعـه؟.

تأمـل في الصـور وتذكـر، قلـب أوراق (الألبـوم) ودفاتـر الذكريـات وركـز.

حـدق في وجوههـم، ولا واحـد منهـم يمتلـك قرنـين (ظاهريـن عـلى الأقـل)، ولا واحـد منهـم يمتلـك ملامـح شريـرة كتلـك الـتي تظهـر في أفـلام الرسـوم المتحركـة، ولا واحـد منهـم يمتلـك ذيـلاً طويـلاً عنـد مؤخرتـه ولكـن رغـم ذلـك فالشـيطان يمتلـك ألـف وجـه وأكـثر! ولا واحـد منهـا يكـون شـيطانياً..

* * *

.. أقـول لـك: اذهـب الآن وحـالاً وابحـث عـن شرائـط (النيجاتيـف) لتلـك الصـور.

لا تقـل أنـك أضعتهـا أو أتلفتهـا، ابحـث عنهـا في الأدراج الملآنـة، الـتي تعـودت أن ترمـي فيهـا مـا لا تريـد أن ترميـه في سـلة المهمـلات، في الصناديـق العتيقـة، بـين الأغـراض والهدايـا المنسـية، في العلـب المغلقـة المغلفـة بالنسـيان والعـث والغبـار، ابحـث هنـاك، لابـدَّ أنـك سـتجد واحـداً منهـا عـلى الأقـل، أقـول: خـذه وانظـر إليـه باتجـاه الضـوء السـاطع، ظهـره ببصيرتـك، انظـر إليـه مـن خلالهـا.

ستری فجأة وكما لو كان سحراً أن الأبيض والأسود في (النيجاتيف) يشكلان شيئاً اخر، تكويناً آخر غير تلك الصور، لن ترى خيالات صور العبث واللهو مع الأصدقاء والخلان، بل سيبدو كما لو أن هناك صورة أخرى تحتها مطبوعة بحبر سري غامض، ركز أكثر: سترى هناك تكراراً رهيباً لصورة واحدة تملأ الشريط كله..

إنها صورة ذلك الطفل السوداني المحتضر زحفاً باتجاه لقمة طعام، وعلى بعد أمتار ذلك النسر المتربص الذي لا يأكل إلا الموتى..

* * *

(زووم) على الصورة أكثر، لقد كانوا يتربصون بك يا صديق..

كل ذلك كان مقدمة تمهيدية لمشهد السقوط الأول في السيناريو..

.. الحلقة الأولى كانت انقطاعك الحزين والمفجع عن الصلاة..

.. الحلقة الثانية المتصلة والناتجة عن الأولى هي انقضاضهم عليك كما ينقض النسر الجارح على الفريسة الميتة..

.. والآن لقد وصلنا للحلقة الثالثة، للمشهد الأهم في سيناريو السقوط.

للمعصية الأولى التي ستسهل كل المعاصي التالية، للسقطة الأولى التي ستفتح باب السقوط نحو الهاوية..

لقد حاولت تأخير ذلك، بل حاولت - وأنا أعلم مسبقاً فشل المحاولة- أن أؤجل المشهد أو ألغيه، وكما يخادع المرضى أطباء الأسنان فيفتعلون الأحاديث قبل أن يبدأ الطبيب بعمله من أجل كسب الوقت، كنت أحاول أن ألتف وأناور وأؤخر المشهد..

لكن لا مفر.

مشهد سقوطك الأول يتربص بك يا صديق.

* * *

مشهد السقوط الأول، (كلاكيت) أول مرة.

السرير يبدو مرتباً لكن لدي إحساس بأنه غير نظيف، أقلب في الملاءات وألاحظ أنها ليست نظيفة، يبدو ذلك منطقياً جداً.

الأثاث لا بأس به، لكنه يعطي إحساساً عاماً بالرخص ينسجم مع بقية تفاصيل المشهد.

هناك مسجل في ركن ما، وشريط يدور باستمرار ويطلق أغنية ثمانينية تبدو الآن في غاية الركاكة والسخف.

المروحة في السقف تدور ببطء وتصدر صريراً مزعجاً يحفر في أعصابي.

.. على المنضدة المواجهة للمرآة توجد باقة ورد صناعية في غاية البشاعة وعدم الانسجام، وتذكر أيضاً بالرخص وبموت الأشياء الجميلة في هذا العالم.

.. الحائط شبه عار إلا من بعض الصور المتناثرة والتي لا معنى لها ولا رابط بينها على الإطلاق، مثل كل العلاقات العابرة التي لا معنى لها والتي تحدث في غرف كهذه وعلى أسرَّة كهذه..

.. وعلى الحائط أيضاً عنكبوت يبدو أكثر إنسانية وأقل تفاهة من كل البشر الذين يرتادون هذه الغرفة..

قرب بيت العنكبوت ساعة حائط تصدر تكات منخفضة وخافتة، لا عجب أبداً أنها خافتة، ليس من مصلحة أحد هنا أن يذكره شيء بعمره الذي يتسلل من بين أصابعه في غرف كهذه، على أسرة كهذه..

.. الباب مغلق بإحكام.

والستائر مسدلة.

جو الغرفة خانق، لو أنهم يفتحون الشبابيك على الأقل، لكن لا، لا يمكن لذلك أن يحدث، الستائر مسدلة تماماً؛ يجب أن يحدث ذلك خلف ستائر مسدلة وأبواب مغلقة.

فجأة أنتبه لسخرية ذلك، ياللتناقض! مم يخافون؟ ألم يعلموا أن الله يسمع ويرى؟. رغم الستائر، رغم الأبواب.

قبل أن يبدء الـ (Action) أصرخ (Stop) وأوقف المشهد.

وأتجه إليك بغضب، أهزك بعنف من قميصك الداخلي الذي بقيت به، أصرخ: ألم تعلم بأنه يسمع ويرى؟.

لقد فشل المشهد، سنضطر الآن إلى إعادته.

مشهد السقوط الأول، (كلاكيت) ثاني مرة.

مفـردات المشـهد الأول نفسـها، لكـن الرائحـة أصبحـت لا تطـاق، لا أدري كيـف زادت، لا أعـرف مـن أيـن تنبعـث، ألاحـظ عـلى المنضـدة معطـر جـو رخيصـاً كان منتـشراً في الثمانينـات، أرش رذاذه محـاولاً تخفيـف الرائحـة، لكـن اختـلاط الروائـح يجعلهـا أكـثر مـن أن تحتمـل، أشـعر بالغثيـان وبرغبـة ملحـة في التقيـؤ، أحـاول أن أتذكـر مـاذا أكلـت في الليلـة السـابقة، أنتبـه الى وجـود بقايـا طعـام عـلى المنضـدة، كبـاب وبعـض الخـضراوات والبصـل، تزيـد الرائحـة نفاذيـة عندمـا أنتبـه لذلـك، أتذكـر بحـزن لا حـدود لـه أنـه يتـودد إليهـم بالنعـم بينمـا يتبغضـون إليـه بالمعـاصي، بقايـا الكبـاب والخـضراوات ملفوفـة بإهمـال بـورق جريـدة، أتأمـل في الجريـدة؛ هنـاك أخبـار عـن المعـارك عـلى الجبهـة، وفي الصفحـة المقابلـة كانـت هنـاك صـور مـن المعـارك تعـرض الجثـث المتفسـخة والمتروكـة عـلى أرض المعركـة..

تختلـط الروائـح عنـدي، رائحـة الغرفـة الخانقـة مـع رائحـة المعطـر الرخيـص ورائحـة كبـاب السـوق والبصـل مـع رائحـة الجثـث المتفسـخة عـلى أرض المعركـة..

ورائحـة العلاقـات العابـرة المنبعثـة مـن الأجسـاد الرخيصـة الـتي ترتـاد غرفـاً كهـذه..

أشُدُّ أنفـي بقـوة، لكـن لا شيء عـلى مـا يبـدو ينفـع الغثيـان. القـيء يـكاد يصـل إلى بلعومـي..

فكـرة أنـه يتـودد إليهـم بالنعـم وأنهـم يتبغضـون إليـه بالمعـاصي تـكاد تخنقـني.

فجـأة أتذكـر، إنهـا ربمـا تكـون رائحـة الجيـف الـتي يفترسـها ذلـك الـكاسر الـذي لا يفـترس إلا المـوتى، وأفكـر أنهـم عـلى مـا يبـدو فعـلاً أمـوات غـير أحيـاء ولكـن لا يشـعرون، وأن رائحتهـم الـتي تخنقـني والـتي لا يشـمون ولا يستنشـقون هـي رائحـة جيـف المـوتى الذيـن هـم أحيـاء بيولوجيـا.

.. المشـهد يـكاد يبـدأ لكـني أفقـد سـيطرتي لـم أعـد أسـتطيع، هـا أنـا أتقيـأ في قلـب المشـهد وأفسـده مـرة ثانيـة.

* * *

مشهد السقوط الأول، (كلاكيت) مرة ثالثة.

أسـمع أصواتـاً غريبـة، ألتفـت ولا أجـد مصدرهـا، يخيـل إلي أنهـا ربمـا في خلفيـة ذهـني أو ربمـا في خلفيـة ذهنـك.

أصـوات غريبـة مختلطـة تعلـو بالتدريـج وتصـير أزيـزاً كأزيـز النحـل.

في الأزيـز أمـيز فحيحـاً كفحيـح الأفعـى، أمـيز سُـمّاً قاتـلاً في معسـول الـكلام.

أميز كيف شجعوك وجروك إلى أن أوصلوك إلى هنا.

الأزيـز يعلـو، الـكلام مسـموم وقاتـل مثـل قرصـات النحـل، الفحيـح واضـح: **كـن رجـلاً وافعلهـا، إنهـا مرتـه الأولى، هـل يعقـل ذلـك، يـا أخـي أخزيْتنـا، أرنـا فحولتـك إذن.**

الأزيـز يعلـو أكـثر، الفحيـح يصـير فخـاً يحـاصرك مـن كل الجهـات، أراك يـا مسـكين لا تنتبـه بـل تشـاركهم الـكلام والتعليـق

الفاحش، أراك أيضاً تئز وتفح مثلهم، يا مسكين لو لم أكن قد عرفتك لظننتك منهم، من أولئك الذين لو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون، **يا مسكين لقد تربصوا بك ونصبوا لك فخاً بإحكام وإتقان.**

.. وأراك يا مسكين لاهياً عابثاً لا تدري بأي هاوية سيسقط بك الفخ..

لقد أخذوك فغلوك ثم الجحيم أوصلوك ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً أسلكوك.

إنك كنت تصلي لله العظيم، لكنك - يا حسرة عليك- انقطعت وتركتهم يسقطونك ويغلونك..

نعم أراك يا مسكين تسقط في الفخ ولا أسمع صيحة استغاثة.

أو لعلك أطلقت واحدة ولكن هذا الفحيح وهذا الأزيز الذي يعلو أكثر فأكثر منعني من أن أسمعها..

الأزيز يعلو، يكاد يصم أذني، أتعجب من أين يأتي؟ إنه يشبه أزيز المرجل، هل من أحد هنا يغلي الماء؟. إذا كان يقصد التعقيم فسيحتاج حتماً إلى الكثير من الماء المغليّ،

أم إنهم يغلون الماء من أجل التعذيب، من أجل أن يرمون أبطال المشهد كلهم فيه (كما سيحدث لاحقاً في المشهد النهائي الموعود)؟...

أم إنه أزيز آخر ليس أزيز المرجل.

إنـه يعلـو أكـثر فأكـثر، يـكاد يصير مثـل صافـرة إنـذار داخـل رأسي، بـل هـو صافـرة إنـذار داخـل رأسي، ورأسي يـكاد ينفجـر، المشـهد أمامـي يمتـلئ بقعـاً حمـراء وسـوداء وصفـراء وعينـاي تـكادان أن تخرجـا مـن محجريهمـا.

الأزيز(أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً) [مريـم 19/83]

نعـم لقـد رأيـت الشـياطين بتلـك الأقنعـة المألوفـة الـتي تتنكـر خلـف وجـوه الأصدقـاء والأقـران، رأيـت الشـياطين ينقضـون، ويـؤزون، ويحفـزون، (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً) نعـم أشـهد، رأيـت وسـمعت، بـل إن أذنـاي تـكادان تنفجـران مـن هـول مـا سـمعت..

(وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً) [مريـم 19/82]، نعـم أدرك ذلـك بـل إنـه مـن طبيعـة هـذه العلاقـات أن تنقلـب عـلى عقـب ويصـير الأخـلاء يومئـذ أعـداء (فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً) [مريـم 19/84]. لـو لـم تكـن معهـم يـا صديـق لقلـت آمـين، بـل لـو لـم تكـن صاحـب الـدور الرئيـسي في هـذا المشـهد لجلسـت شمتّ. لـو لـم أكـن قـد عرفـت صدقـك ونقـاءك وطيبتـك لهـززت كتفـي وكأن الأمـر لا يهمـني، لكـن الآن وقـد عرفـت، يبـدو الأمـر مختلفـاً جـداً وشـخصياً جـداً ومؤلمـاً جـداً..

(وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً) [مريـم 19/86] يـكادون يأخذونـك متلبسـاً بالجريمـة الآن، في قلـب المشـهد يـكادون يسـوقونك إلى جهنـم ورداً..

وأريـد أن أقتحـم الحقائـق وأغير الأشـياء، أنـا - المتفـرج الـذي

يشاهد المشهد الأول من ذاكرة مسروقة- أريد أن أتدخل وأمنع عنك هذا المصير ولا أكاد أستطيع.

(لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً) [مريم 19/89] نعم أعترف، أعترف بالنيابة عنك وعن ذاكرتك التي تورطت بها، نعم.. شيئاً إدّاً، أنت الذي كنت تصلي وكنت قريباً من القريب المجيب ثم تتركه وتأتي إلى هنا ويقبضون عليك متلبساً في غرفة حقيرة كهذه... نعم، شيئاً إدّاً..

(تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً) [مريم 19/90] هذا الذي هو «عادي» و«طبيعي» و«كل الشباب يفعلونه» و«دليل على الرجولة».

هذا الذي يفعلونه ويتفاخرون بفعله، ويتعلمون تنويع أساليبه وتجديدها.

أنزل الله من أجله حداً قاطعاً؛ تشريعاً يصل لحد القتل، قانوناً من قوانين السماء والأرض، وعندما نخترق هذا الحد نخرق هذا القانون، نتجاوز ذلك الخط الذي وضعه الله لنا من عليائه، فإن ذلك بالضبط يمثل أن تتفطر السموات وتنشق الأرض وتخر الجبال، أي تتحطم القوانين التي وضعها الله عز وجل للكون، بالضبط كما نحطم نحن القوانين من أجل الـ «عادي» و«طبيعي» و«كل الشباب يفعلونه».

نعم... في قلب المشهد، أنا أفهم ذلك للمرة الأولى، وأفهم أن كل واحد من هؤلاء لو أدرك ما أدركه ورأى ما رأيته لتمنى أن الأرض تنشق وتبتلعه على أن يفعل ما فعل.

لقد كان شيئاً إدّا.

(لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً) [مريم 19/94] لعلك نسيت التفاصيل، لعلك نسيت وجه أول من فعلت معها، لعلك نسيت أولئك الذين أخذوك وغلوك وإلى الجحيم كادوا أن يوصلوك، لعلك نسيت كم مرة فعلت، وكم كأساً شربت، لكن لا عليك، لا تقلق إذا نسيت شيئاً، إنه كفيل بكل التفاصيل التي نسيتها (لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً) كل الوجوه، كل المرات، كل التفاصيل، كل الأماكن، كل الأوضاع..

(وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً)، فرداً واحداً مجرداً من كل عزوته، من كل أقرانه الذين أسقطوه وأوصلوه إلى حيث وصل، فرداً وحيداً محاطاً بالفراغ في تلك المواجهة الهائلة..

وأراك هناك يا مسكين فرداً أعزل إلا من ذنوبك وأوزارك ومعاصيك، يأتي الإنسان إلى هذه الدنيا فرداً عارياً من كل شيء ويذهب إلى ربه كما خلقه أول مرة عارياً إلا من أعماله، فإما أن تستره أو تفضحه؛ حسب نوعيتها..

وأراك يا مسكين قد بدأت الاستعداد لذلك اللقاء الآخر وتلك الرحلة الأخيرة، أو هكذا يبدو لي للوهلة الأولى، ها أنت تتعرى لتكون مستعداً للذهاب كما أتيت، أحاول أن أشرح لك أن ذلك غير ضروري، لكني أنتبه أن عريك لا علاقة له بهذا الذي أفكر به وبهذا المشهد الأول للسقوط الذي تورطت به..

فجأة أراك يا مسكين نحيلاً جداً، ضعيفاً جداً، لست حِمْل ما سيحصل لك، لن تتحمل ما يرصد لك، لن تستطيع أن تتحمل ما سيرمى على ظهرك من أثقال إذا ما خطوت خطوة أخرى نحو الهاوية.

إنـك مسـكين يـا مسـكين..لا تـدري أنـك بخطوتـك هـذه نحـو الهاويـة سـتضرب في التيـه لسبعة عـشر عاماً في الضيـاع، في الهبـاء المطلـق، في البعـد عـن نفسـك وعنـه، عـن الله..

إنـك مسكين، ولعلـك لـو كنـت تـدري أن هذه السـقطة سـتأكل سـبعة عـشر عامـاً مـن عمـرك لكنـت وقفـت وفكـرت وقـدرت، وارتديـت ملابسـك وانسـحبت..

لكن يبدو أنه لا انسحاب.

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً) [مريـم 98/ 19].

.. فجـأة يختفـي الأزيـز ويختفـي الفحيـح، يعـم السـكون، الصمـت المريـب، الهـدوء الـذي يـلي العاصفـة، لا الذي يسبقها.

فجـأة تختفـي الأصـوات، يعـم ذلك الصمـت الذي يذكـر بمقبرة مهجـورة لا يـزور موتاهـا غـير الريـاح الـتي لا تلـوي عـلى شيء.

ابحـث عنكمـا أنـت وهـي، لا ادري أيـن ذهبتمـا، كنتمـا عـلى وشـك البـدء والآن لا أدري..

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً)، لا، لا أحـد، لا أحـس أحـداً منهـم ولا أسـمع أي صـوت خفـي أو غـير خفـي..

إنـه الصمـت المريـب، إنـه السـكون العجيـب' لكـن أيـن ذهبتمـا؟.

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ)

هـل سـقطتم في الهبـاء المطلـق، هـل أخذتكـم الهاويـة عـلى الفـور؟. هـل هلكتـم يـداً بيـد وفـور ارتكابكـم المعصيـة؟.

(هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً).

كل أولئـك الذيـن سـقطوا قبلـك وقبلهـا وبعـدك وبعدهـا، هـل تسـمع لهـم مـن صـوت؟ هـل صرخـوا وهـم يسـقطون؟ هـل سـمعنا لهـم صـوت اسـتغاثة وهـم يسـقطون عـبر هاويـة ستسـتغرق ربمـا أعمارهـم كلهـا؟

أحـاول أن أنصـت، أن أصغـي، أتذكـر الأزيـز الـذي أزك أزاً واسـتفزك وحفـزك وأوصلـك إلى هنـا..

هل تحس منهم أحداً؟. أو تسمع لهم ركزاً؟.

لا، لا شيء، لا أحـس أحـداً ولا أسـمع ركـزاً، لا أزيـز، لا فحيـح، ولا أحـد عـلى الإطـلاق.

ولأن الهـلاك قـد ابتلـع أبطـال المشـهد فلقـد فشـل المشـهد للمـرة الثالثـة.

* * *

مشهد السقوط الأول، (كلاكيت) مرة رابعة.

إلى المـدى الأبعـد سـتمضيان، لا انسـحاب، كل شيء يبـدو مسـتعملاً ومبتـذلاً، الكلمـات المتبادلـة بينكمـا تبـدو كمـا لـو أنهـا قيلـت ملايـين المـرات، تبـدو معلوكـة وممضوغـة ومرميـة عـلى الأرض، حتى الصمت المتوتر يبدو أنه قد استعمل ألف مرة، حتى الهـواء في الغرفـة يبـدو أنـه معـاد وموبـوء مـن كـثرة الاسـتعمال..

كل شيء هنا معرض للعدوى الخطرة سريعة الانتقال، حتى الأوكسجين الذي تستنشقه.

.. المقدمات التمهيدية بينكما تذكرني ببرنامج عالم الحيوان، حيوانان يلتقيان في الغابة لا يجمعهما سوى فصيلتهما الواحدة وغريزتهما المشتركة، يقضيانها ويمضيان كل في طريق.

طبعاً الحيوانات أفضل، إنها تمارس قانونها الطبيعي، لكنك تخترق القانون الذي اختير لك، تنتهكه وتدوس عليه.

مع ذلك شيء في المقدمات التمهيدية بينكما يذكرني ببرنامج عالم الحيوان بفارق أن الحيوانات أفضل؛ مع الحيوانات لا نقود ولا قرناء يتربصون وينقضون ويغلون ويجرون، ولم أسمع قط أنهم يصابون بأمراض..

.. عما قليل يبدأ العرض، وينتهي مع بدايته العِرْض، لا يفكر الذكور بأعراضهم إلا باعتبارها ما يخص أخواتهم أو بقية إناث العائلة، تلك هي قوانين الـ «عادي» وال«طبيعي» الاجتماعية، لكن قوانين السماء لا تفرق ولا تكيل بمكيالين..

لا يدرك الذكور ذلك، ويمضون في عرض رجولتهم غير مدركين أن الطوفان واحد، وأن الدَّيْن سيسدد فيما بعد في غرفة أخرى أو شقة أخرى أو على المقعد الخلفي لسيارة أخرى..

ما أدركوا- أو أنهم أدركوا -وما همهم ذلك، وعما قليل يبدأ العرض..

لا انسحاب على ما يبدو..

الإضاءة الساطعة تبدو جريئة وفاجرة، فجأة تصير الظلال حمراء لا تذكر إلا بجهنم التي ستبتلعهم جميعاً فيما بعد، العرق على الأجساد يبدأ بالتفصد، رائحة نفاذة تشبه رائحة السمك الفاسد تنبعث من مكان ما رغم أنها وضعت بحكم الحرفة التاريخية (المسك في المناطق) ورغم أنك بدافع خجل المرة الأولى وضعت أيضا معطراً ما، لكن رغم ذلك الرائحة لا تطاق..

أعتقد ان الملمس على الأجساد أيضاً لا يطاق، ملمس يوحي بلزوجة وزناخة لن ينفع معها التنظيف الاعتيادي، ملمس دهني مستعصٍ على الزوال.

بالضبط مثل الآثار المتروكة على الجدران والمساند والمقاعد في الأماكن العامة، الناس يتركون آثارهم عليها، مهما أعيد جليها وغسلها فهي تبقى..

.. وهنا، المشهد بكل تفاصيله مستعمل جداً، وآثار الناس تترك هذا الأثر بأن الملمس زنخ ودهني وقذر.

عالم الحيوان يكاد يصل الى مرحلة متقدمة.

المروحة تتسارع، صريرها يعلو ويصير مثل حفارة في أعصابي، في رأسي، في دماغي، العنكبوت على الحائط يبدو مرة أخرى أكثر إنسانية من كل عالم الحيوان، الأفعى تخرج لسانها وتفح سمومها.

في ركن ما بعيد وقريب يضحك إبليس ضحكة ساخرة فاجرة يتردد صداها ولكنكما لا تصغيان..

المسجل لا يزال يدور ويطلق معه تلك الأغنية الثمانينية التي تبدو ركيكة جداً وسخيفة، لكن إيقاعاتها فجأة تتباطأ وتتضاءل، للوهلة الأولى يخيل إليّ أن عطباً ما قد أصاب الجهاز، لكن لا، البكرة لا تزال تدور، صوت المطرب يختنق ويتحشرج، الموسيقا تقل، تشعر بأن أعضاء الفرقة الموسيقية أخذوا ينسحبون بالتدريج من أماكنهم.

صوت المطرب يبدو كما لو كان قادماً من بئر عميق، بل من بئر يزداد عمقاً..

يختنق صوته تماماً ويحتمل تماماً أن يكون هو شخصياً قد اختنق..

يسود الصمت، إما أن المطرب مات أو أن الجهاز أصابه العطب..

فجأة أسمع صوتاً خافتاً قادماً من المسجل، يعلو بالتدريج ولكن يظل خافتاً لا علاقة له على الإطلاق بالأغنية الثمانينية الركيكة ولا بالمطرب المختنق.

من بعيد أميز صوت البكاء، بكاء حارق وحاد، إنه صوت رجل يبكي، بل رجل يجهش بالبكاء وينشج..

أجفل... من كل الأصوات في العالم فإن صوت بكاء رجل يظل هو الأكثر قدرة على الإجفال والتأثير.

دموع المرأة صارت سلاحاً مستهلكاً وقديماً، والأطفال يبكون عادة بسبب وبلا سبب، لم يبق سوى بكاء الرجل يمتلك تلك القابلية على التأثير وهذا الرجل هنا لا يبكي بل يجهش بالبكاء، إنه غارق في النشيج.

.. أجفل، أتوتر، الجو كله يزداد توتراً، الرجل في المسجل يحاول أن يقول شيئاً لكن دموعه تمنعه. خلفه أسمع أصواتاً أخرى أبعد منه **تبكي أيضاً، أتخيلها صفوفاً كاملة من الرجال تبكي خلفه.**

فجأة ينزل علي الفهم كالصاعقة، هذا الرجل يقرأ القرآن في صلاة التراويح... أتبين في صوته قارئاً معروفاً ومنتشراً جداً. لكن ما الذي جاء بهذا الشريط هنا في هذا المكان القذر والمناسبة القذرة، لا يعقل أنهم -مهما بلغ فجورهم- يجرؤون على ذلك.. أن يمارسوا الزنى بينما القرآن يصدح في المسجل..

أهرع إلى جهاز التسجيل، الشريط لم يتبدل. من جاء به إلى هنا؟. أتذكر الآن أننا في أواسط الثمانينات وأن هذا القارئ لم ينتشر إلا بعد ذلك بفترة، في أوائل التسعينات تقريباً لكنني متأكد من صوته وهويته.

مالذي يحدث بالضبط؟ من أين يأتي هذا الصوت؟ من يلعب بأعصابي هنا؟.

الرجل يحاول أن يغالب دموعه ليكمل القراءة، يتلجلج في كلمة أو كلمتين أتبين فيها تلك الآية الحارقة من سورة يس.

(يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) [يس 36/30].

يا حسرة على العباد، يشهق بها القارئ ويشهق معه أولئك الذين يصلون خلفه.. أشهق أنا معهم..

يا حسرة على العباد، تخرج عميقة، موجوعة، مفجوعة،

تخرج حسرة حقيقية من أعماق قلب غيور يتحسر على الناس وهو يراهم يسقطون ويتهاوون نحو جهنم، قلب يتفطر ويتشقق حسرة وهو يرى الناس يصرون على الخطأ، يصرون على الخطيئة وبأيديهم يقطعون صلتهم بالله ويفتحون باب الهاوية ثم يدلفون إليه..

يا حسرة على العباد، وفي مناسبة كهذه، غرفة كهذه، سقطة كهذه، معصية أولى ستفتح لك باب التيه لسبعة عشر عاماً لا يمكن للحسرة إلا أن تكون موجوعة، مفجوعة، حقيقية، صادرة من أعماق قلب متفطر..

يا حسرة على العباد، ويبكي بشدة ويبكون معه، أبكي معهم، كل واحد منا يبكي على ليلاه، لعله هو الآخر يتذكر صديقاً له سقط ويتحسر عليه، لعل كل واحد من هؤلاء الذين يبكون يتحسر على صديق أو قريب وتخرج حسرته عميقة من أعماق قلب موجوع حقاً ومتألم حقاً..

يا حسرة على العباد، يا حسرة على كل أولئك الناس الطيبين الذين ينقض عليهم الأقران ويجرونهم إلى هنا حيث الدرك الأسفل، حيث أسفل سافلين..

يا حسرة عليك أنت يا من عرفت نقاء معدنك وصفاء سريرتك وصدقك.

أنت يا من كنت تصلي دون أن يعلمك أحد.. ثم انقطعت وأخذوك وغلوك والى هنا جروك..

الآن أفهم هذه الآية حقاً، أجد هذا المشهد حزيناً جداً كما لم أجده من قبل..

بل إنه يكاد يكون سبباً لنزول الآية. يخيل إلي أني لو ذهبت الآن إلى كتب التفسير وبحثت عن مناسبة نزول هذه الآية لوجدت اسمك مكتوباً هناك وهذا المشهد الحزين المفجع الذي أنا حبيس بداخله..

يا حسرة على العباد، يتعثر بها الرجل في المسجل وهو يكملها بين دموعه ونشيجه..

وأعرف أني سأتعثر بها بقية عمري..

.. ولقد فشل المشهد مرة أخرى طبعاً..

مشهد السقوط الأول، (كلاكيت) خامس مرة.

.. يبدو أنك مصر على المضي إلى النهاية.

يبدو ذلك مؤسفاً جداً ومحزناً جداً.

أقول لك: لماذا لا تقول لها: إن بطنك تؤلمك الآن، أو إنك تشعر بحرقة في أمعائك وتعتذر لها! وتؤجلان ذلك؟؟.

لكن لا طبعاً، إنك ستخاف الفضيحة، يجب أن تثبت رجولتك، إنها المرة الأولى وهي امتحانك الأول كما افهموك، لكنه في الحقيقة سقوطك الأول فيما لو نجحت في هذا الامتحان..

.. لا انسحاب، ستمضي إلى النهاية، ها قد بدأت في ذلك الشيء الذي لو كان معي ثلاثة شهود آخرين لاستحققت إقامة الحد، لكني قررت: سأنسحب، أنا لن أكون شاهداً على ذلك.

لا يمكن أن أمضي أكثر من ذلك في تعذيب الذات، لقد أحببتك حقاً ولا أريد أن أراك متلبساً في هذا المشهد، هذا

الذي هو «عادي»، «طبيعي»، «كل الشباب يفعلونه»، سيحيق بك ذات يوم ويحاصرك ولن تجد منه منقلباً.

.. أتركك وأنت فوقها وهي تحتك تتماوجان معاً في التفاصيل التي لا تختلف كثيراً عن تلك التفاصيل التي تجري بين الحيوانات (بفارق أن الحيوانات أفضل..).

(وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً) [الكهف 18/99].

ها أنا أنسحب، لا أريد، ببساطة لا أريد، أغمض عيني وأشد على أذني ولا أريد.

(الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً) [الكهف 18/101].

نعم... نعم أفهم، الغطاء الوحيد الذي تغطوا به كان عن ذكر الله، ولم يشدوا على آذانهم إلا فيما يخص سمع كلامه، لكنني لا أريد المواصلة، لا أريد أن أرى أو أن أسمع.

أنسحب من المشهد، وقبل أن أغلق الباب خلفي يأتيني خاطر محزن: أنه إذا انسحبت أنا ودفنت رأسي في الرمال فإنه ظل هناك من عليائه يسمع ويرى.

.. لقد سقطت من عينه.

ويعني ذلك أنه في المرة القادمة عندما تغلط فلن يحميك وسيكون سقوطك أسهل..

من يهن مرة يسهل الهوان عليه.

عندما أفهم هذا الخاطر أحاول أن أعود أدراجي لأمنعك من السقوط لكن كان الأمر قد قضي.

وما يستحق عقوبة الحد كان قد وقع.

نهاية المشهد.

* * *

صبيحة اليوم التالي..

رغم هول ما حدث فالعجيب أن الشمس ظلت تشرق، والأرض ظلت تدور..

لكن رأسك سيظل يدور ويدور..

في أعماقك ستخرج نفسك اللوامة وستشعر بها تقرعك وتضربك، لقد قلت لي: إنك ظللت تلوم نفسك بعد كل مرة طول تلك السبعة عشر عاماً، لكن ما فائدة اللوم إذا كنت مغلولاً بالسلاسل إلى عنقك وهم يجرونك إلى أين حيث يريدون.. في أعماقك سيكون هناك شعور بأنك قد خدعت، وأنه قد ضحك عليك، وأنك قد سقطت لقاء أمر لم يكن ممتعاً كما توقعت، ربما كانت المقدمات مثيرة لكن الأمر نفسه لم يكن جميلاً جداً، لم تفهم كيف ولن تفهم كيف، لكن هذا الشعور سيظل يلازمك لفترة طويلة، ولن تعرف لماذا تدني نفسك عليه إليه إذا لم يكن ممتعاً جداً. لن تعرف لأنك لم تلاحظ السلاسل وآثارها على عنقك..

وأنا متأكد تماماً أن ذاك الشيء الذي في داخلك والذي دفعك للصلاة قبلها كان ينتحب بشدة بعد كل مرة تسقط

فيهـا وتوغـل في المزيـد مـن الضيـاع..

صبيحـة اليـوم التـالي سـتمتلئ نفسـك بفـراغ مـروع، ستشـعر فعـلاً أنـك قـد هبطـت مـن حالـق. هـل دمعـت عينـاك؟ لا أدري، لكـني أعـرف أنـك ندمـت وأنـك فكـرت بـأن تتـوب، لكنهـم كانـوا هنـاك يتربصـون بـك يـا صديـق.

صبيحـة اليـوم التـالي الشـمس لـم تـشرق حقـاً والأرض لا تدور، الليـل الطويـل بدأ ورأسـك سيظل يـدور ويـدور... ويدور..

صبيحـة اليـوم التـالي بـدأ ذلـك الفصـل الطويـل مـن حياتـك، شـبابك الـذي أفنيـت زهرتـه. نفسـك الـتي اسـتنفذتها وعمـرك الـذي أنفقتـه..

* * *

ستدخل الحمام..

تحـت رشـاش المـاء البـارد سـتقف، وسينسـاب عليـك بينمـا تقـف فاغـراً فمـك.

سـتفرك بالصابـون بشـدة، في أعماقـك إحساس بالقـذارة وأنـت لـم تتعـود ذلـك... لذلـك ستفرك وتفـرك وتفـرك..

عندمـا تخـرج مـن الحمـام سيدهشـك أن إحساسـك بالقـذارة لـم يتغـير وأن شـعورك بالدبـق واللزوجـة لا يـزال هـو هـو..

سـتدخل مـرة أخـرى وتقـف تحـت المـاء السـاخن هـذه المرة علـه ينظـف أكـثر..

وسـتفرك بشـدة أكـبر مسـتعملاً نوعـاً آخـر مـن الصابـون، سـيكاد

جلـدك أن يتخـدش يُخـدش وأنـت تفرك..

.. وعندمـا تخـرج وتجفـف جسـمك سيدهشـك أن الإحسـاس لا يـزال قائمـاً وأن الدبـق يـكاد يـأكل جـزءاً مـن جلـدك..

.. وسـتدخل الحمـام مـرة ثالثـة ورابعـة وسـتنغص اللزوجـة والدبـق عليـك حياتـك.. سـيصير عنـدك ولـع مـرضي بالاغتسـال، وباقتنـاء أحـدث مسـاحيق الغسـيل وسـوائله، وسـتتحدث عـن ذلـك، وسـيتحدثون عـن ذلـك، لكـن كل ذلـك سـيكون محـض تغطيـة عـن ذلـك الشـعور الـسري الـذي لـم تخـبر بـه أحـداً: أن الدبـق يـكاد يـأكل جـزءاً مـن جلـدك..

وسـتظل لسبعة عـشر عامـاً طويلة يـا صديق تحـاول أن تتخلص مـن هـذا الدبـق أو عـلى الأقـل أن تتأقلـم معـه، تتعايـش معـه.

ولسبعة عـشر عامـاً طويلة ستفشـل في ذلـك. بالتدريـج لن تفرق بـين الدبـق وبـين ملمـس جلـدك الأصـلي... بالتدريـج سـيصير ملمسـك لزجـاً زنخـاً وسـينغص ذلك عليـك حياتـك دون أن تدري.

.. وسـتظل تدخـل الحمـام مـرة تلـو المـرة لتغتسـل وتخفـف مـن إحساسـك بالدبـق..

لـم تـدر يـا صديـق أن ميـاه المحيطـات كلهـا يمكـن أن تنفـذ وأنـت تغتسـل من جنابة معصيتـك الأولى دون أن يخف إحساسـك بالقـذارة، ودون أن تُـزال هـذه الجنابـة. لكـن قطـرة واحـدة كان يمكنهـا أن تغسـلك فعـلاً وتزيـل ذاك الشـعور وتعيـدك طاهـراً..

قطـرة واحـدة مـن عينـك، دمعة توبـة صادقة وحقيقيـة من قلب مفجـوع وموجـوع بالمعصيـة، ندمـان وعـازم عـلى عـدم التكرار..

دمعة واحدة كانت كفيلة بإزالة آثار جنابة معصيتك الأولى..

.. لكنك قضيت عمرك تغتسل، وضننت على عمرك وعلى نفسك بدمعة واحدة..

.. وظل الدبق يأكلك.

لسبعة عشر عاماً يا صديق..

* * *

مشهد السقوط المتكرر، (كلاكيت) بلا عدد ولا رقم ولا تاريخ.

الغرفة ذاتها، غرفة أخرى مشابهة، على المقعد الخلفي للسيارة، وأحياناً الأمامي.

بيت خالٍ لصديق، شقة صديق - قرين - يتركها لك من أجل ذلك، البيت الصغير في البستان هناك، مكتب صديق - قرين أيضاً، غرفة في فندق رخيص وغرفة في فندق غالٍ لكن رخيص، شقتك على العشب بين الأشجار (هل توجد أماكن أخرى لا أتصورها؟؟.)

من يهن مرة يسهل الهوان عليه، **السقوط صعب في المرة الأولى فقط بعدها يهون ويسهل..**

لسبعة عشر عاماً ستظل تسقط وسيظل الدبق وسيظل الهوان.

وقد بدأ ذلك كله في يوم ما من شهر ما في سنة ما..

عندما سقطت في **المرة الأولى..**

* * *

.. عندما سقطت واستغرق سقوطك سبعة عشر عاماً من

عمرك فإنك لم تدر بالضبط هل كان سقوطاً بطيئاً أم إن الهاوية كانت عميقة؟.

* * *

.. وفي ذلك الزمان المظلم، في كل ليلة من لياليه، كل ليلة من كل شهر من كل سنة عبر سبعة عشر عاماً، لن تصدق ماذا كان يحدث.

في كل ليلة.. كل ليلة! لسبعة عشر عاماً كان ربنا يتنزل من عليائه إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفر فأغفر له..

في جوف الليل وعمق الليل وسكون الليل، يتنزل ربنا..

كل ليلة من كل شهر في كل سنة يتنزل ونحن نيام، هو الذي ليس كمثله شيء. هو الذي ليس كمثله شيء يتنزل كل يوم لينثر رحمته.. **هل هناك من يدعوني فأستجيب له، هل هناك من يستغفرني فأغفر له، هل هناك من يريد شيئاً لأحققه له.**

كل ليلة! لم يغب ولا ليلة واحدة، يدأب على النزول والتفقد، إنه هو الرحمن الرحيم دأبه أنه يتودد إلينا بالنعم ودأبنا اننا نتبغض إليه بالمعاصي..

قل لي يا صديق كم مرة نزل من عليائه ووجدك في أسفل سافلين؟.

كم مرة نزل عارضاً عروضه ووعوده ووجدك غارقاً في

معاصيك؟.

كم مرة نزل عارضاً مغفرته؟ لو أنك طلبتها فقط، لكنه وجدك صاداً قافلاً على نفسك في تلك الغرفة أو في غرفة قذرة أخرى.

كم مرة نزل وجاء وناداك من بعيد لكنك لم تسمع.. كنت ثملاً غارقاً في أبخرة الخمر والفحش والجنس..

كم مرة نزل وجاء ووجدك قذراً مغطى بالدبق والعرق، وعرض أن يغسلك بالتوبة لكنك أعرضت وذهبت إلى (دوش) الحمام..

كم مرة نزل ليتفقدك ويعيدك إليه، أنت يا من كنت تصلي، لكنك أعرضت وأغلقت في وجهه الباب.. لكنه لم يعرض عنك وظل ينزل كل ليلة وظللت تصد عنه..

.. مللت أنت وكللت،

لكنه لم يكل ولم يمل.

حتى كان يوم، من شهر، من سنة.

* * *

لقد انتهى ذلك البؤس كله الآن، انتهى ذلك الضياع وذلك العمر الضائع الذي أكل من عمرك دهراً، انتهى فجأة في يوم، في شهر، في سنة.

لقد ضغطت بيدك على زر الـ(Delete).

وعندما ظهرت على شاشة حياتك عبارة

.Are you sure you want to delete all this?

في يوم، في شهر، في سنة، بعد ألف سنة من الضياع.

وفي عليائـه فـرح الله بتوبتـك، هـو الـذي يـترك لـك البـاب مفتوحـاً عـلى الـدوام..

.. وفي جـوف الليـل، في عمـق الليـل، في سـكون الليـل، جـاءك وتلقـاك، هـرول إليـك يـا صديـق..

.. في جـوف الليـل ظـل يتـنزل، وكنـت في وضـع مـزرٍ، لكنـك اليـوم في وضـع آخـر يـا صديـق..

* * *

.. أستطيع أن أشهد على ذلك.

لقـد تبـت ورأيـت التوبـة، رأيتهـا، شـاهدتها في عينيـك، سـمعتها في صوتـك، رأيتهـا تعيـد تشكيل ملامـح وجهـك.

أشـهد عـلى ذلـك، والله أشـهد عـلى ذلـك، لقـد رأيـت شـكلك يتغـير وشـهدت بـأم عيـني (وأبيهـا أيضـا!) كيـف يغـير الإيمـان شـكل النـاس، كيـف تسـتعيد بالتوبـة نضارتهـا وحيويتهـا، ورأيـت كيـف تنـير الهدايـة الوجـوه بشـكل حقيقـي - لا مجـازي - لقـد شـاهدت وجهـك يـضيء ويسـتنير وينـير، وعندمـا قارنـت بـين صـورك قبـل سـبع سـنوات وصـورة حديثـة كان الفـرق واضحـا؛ لقـد نـور وجهـك ولانـت ملامحـه وبانـت الهدايـة عـلى تقاطيعـه.

حقيقـة: صرت شـخصاً آخـر، لا لـم يكـن فـلاش (الكامـيرا) الأقـرب هـو السـبب لكنـه الفـلاش الآخـر؛ الفـلاش الداخـلي

الـذي سـطع في أعماقـك فظهـرت آثـاره عـلى وجهـك بـل حـتى عـلى (النيجاتيـف)..

أشـهد عـلى ذلـك، لقـد رأيـت هـذا يحصـل، بـل إني أشـهد عـلى أكـثر مـن ذلـك، أشـهد عـلى عودتـك للحيـاة بعـد سـبعة عـشر عامـاً طويلـة مـن المـوت المظلـم، بعـد ذلـك العمـر الطويـل الـذي التهمـت فيـه الكـواسر جثتـك، أشـهد أني رأيتـك اليـوم تقـوم مـن بـين الأمـوات وتعـود إلى الحيـاة..

نعـم أشـهد عـلى ذلـك في عـصر لـم يعـد (للأسـف) يؤمـن بقيامـة الأمـوات.. رأيتـك تعـود إلى الحيـاة.

ووضعـت يـدي عـلى صـدرك، أنصتُّ، **يـا للمعجـزة: ان قلبك يدق!.**

*   *   *

فلماذا أعذبك إذن يا صديق بتلك الذكريات؟

ولماذا أذكرك بذلك العمر المظلم الذي مسحته عندما تبت؟.

لا أدري بالضبـط، لكـني أعـرف أني كلمـا مـررت أمـام مدرسـتك القديمـة (وأنـا أمـر بهـا يوميـاً مرتـين عـلى الأقـل، كمـا تـدري) يسـاورني شـعور بالذنـب، وكلمـة (يسـاورني) هنـا لا تعـبر بالضبـط عمّـا أشـعر بـه، فلأقـل: إن هـذا الشـعور يحـزني مـن رقبـتي، يحزهـا ببطء مـن الوريـد إلى الوريـد..

كلمـا مـررت أمـام مدرسـتك وتذكـرت أنـك كنـت تصـلي إلى أن تخرجت منها، ينتابني شعور حاد بالذنب لا أستطيع التخلص منه.

وكلمـا مـررت في منطقـة بيتكـم القديـم يتأجـج ذلـك الشـعور،

وتعذبني التفاصيل؛ في واحد من هذه الشوارع الأربعة انقض عليك القرناء، في واحد من هذه الشوارع الأربعة كانوا يتربصون بك يا صديق، ولم يكن انقضاضهم ممكناً إلا بعد أن انقطعت عن الصلاة، هنا في مكان ما تمكنوا منك وأخذوك وغلوك وكادوا إلى جهنم يوصلوك..

نعم، لكن لماذا الشعور بالذنب؟. لن تصدق يا صديق، لكنه حقيقة، إنني أشعر بالذنب لأن مثلي لم يستطع وقتها إنقاذ مثلك، أشعر بالذنب لأني لم أستطع وقتها أن أتدخل لأفكَ الأغلال عن عنقك، لكن أين كنت أنت وأين كنت أنا يا صديق؟..

مع ذلك أشعر بالذنب، ربما نيابة عن أولئك الذين كانوا قربك وتركوك تغرق ولم يتقدم واحد منهم لإنقاذك أو ليرمي لك بطوافة للإنقاذ..

وربما أصالة عن نفسي بخصوص أولئك الذين حكايتهم تشبه حكايتك (تشبه حكايتهم حكايتك)، أولئك الذين كانوا قربي وسقطوا وتركتهم يسقطون، ووقفت أتفرج وأتحسر عليهم: ألجمني ربما خجلي وربما خوفي، وظللت أتفرج إلى أن غيبتهم الهاوية السحيقة..

الآن خصوصاً أحس بحسرة عميقة عليهم، وأشعر بذنب لا حدود له لأني لم أتدخل، إنهم مثلك، تشبه حكايتهم حكايتك جداً، معادنهم أصلاً طيبة، لن تتخيل أنهم معدون ليكونوا حطباً لجهنم، ربما كانوا يصلون مثلك لكن في لحظة غفلة، لحظة ضعف، انقطعوا عن الصلاة وكان الأقران يتربصون بهم يا صديق، بالضبط مثلما حدث معك، وفي لحظة ما انقض

الوحش الكاسر عليهم والتهمهم، كما التهمك.. بالضبط.

ووقفت أتفرج... أستطيع أن أعد عشرة أسماء أو أكثر من المقربين ممن سقطوا.. كانت حكايتهم وحكاية سقوطهم تشبه حكايتك بالضبط، انقطعوا عن الصلاة، تربص بهم القرناء، التهمهم الوحش الكاسر الذي لا يلتهم إلا الموتى..

.. وهناك على بعد أمتار من الهاوية، كنت أتفرج، ربما كنت أنتظر دوري، لكن ذلك المزيج المثمر الفعال من العقل والهداية جعلني أبصر، وأستمسك، وأستعصم.. وأبتعد..

واليوم، بعد أن عرفت كل ما كان، وبعد أن عرفتك واخترقتني ذاكرتك، وامتلأت بتلك الحسرة العميقة على العباد الذين سقطوا أمامي ولم أمد يدي لأنقذهم..

ربما لم أشعر بكبير ذنب وقتها، كان يكفيني أني لم أسقط معهم! لكني الآن أشعر بالذنب وبتأنيب حاد للضمير بأثر رجعي..

بل أني أشعر بالذنب تجاه ناس لا أعرفهم. تجاه كل الناس الذين معادنهم أصلاً طيبة ولم يعدوا أساساً ليكونوا حطب جهنم، ولكنهم مع ذلك يسقطون في كل يوم من كل شهر في كل سنة..

أشعر بالذنب لأني لا أفعل شيئاً لهم، لأني لا أمد لهم يدي.. لأنقذهم من الهاوية التي فيها سينتهون..

أشعر بالذنب، وبتأنيب الضمير، إنها مأساة الذين يعرفون تجاه الذين لا يعرفون.

* * *

ولماذا اكتب لك؟

فجأة لم أعد أكتب لك، أقصد أني أكتب لك، ولكن لا أعنيك أنت بالضبط، فجأة صرت تمثل كل الناس، كل أولئك البشر الأصلاء أصحاب المعادن النقية لكن المعرضين للسقوط..

فجأة صرت تمثل رمزاً لكل أولئك الذين أتمنى أن أمد يدي لهم لأنقذهم، لكل أولئك الذين أتمنى أن أتواصل معهم..

فجأة صرت أكتب لأمتلك أيادي كثيرة، أنقذ بها أولئك الذين هم على شفا حفرة من الهاوية.

نعم، إياك أعني واسمعيني يا جارة.. أكتب لك دون أن أقصدك.. لكن الكتابة لا يمكن أن تكون إلا عبرك، إلا عبر شخص حقيقي مر بكل ما يمر به أولئك الذين يسقطون ويتساقطون..

وبيني وبينك... أشعر أنك تجاوزت هذه المرحلة وأنك لن تعود أدراجك بعدما تبت وتذوقت حلاوة الإيمان واستشعرت القرب منه عز وجل، لا أقول ذلك لأتملقك، بل تقديرا لأمر واقع أستشعره، وأشهد دلالاته..

لكن مع ذلك أقول لك، التوبة أحياناً لا تكفي، لا أقصد أنها لا تمحو الذنب، لا، لكني أقصد أنها لا تمحي (تمحو) ذنبك تجاه الآخرين، أولئك الذين يسقطون ولا يجدون من يمد لهم يداً.. لينقذهم..

كلنا مذنبون فيما يتعلق بذلك، كلما وقعت واقعة سقوط **فالمذنبون الأساسيون ليسوا الفاعل و (المفعول بها) فقط، بل أولئك الذين لم يتدخلوا ولم يمنعوهما، ولم يمدوا يداً منذ أن بدأت أولى مقدمات السقوط..**

لا نجـاة إلا بـأن تمـد يديـك، وأمـد يـدي... يمـدوا أيديهـم.. ولـو كان ذلـك قـد حـدث مـن البدايـة، لمـا سـقطت أنـت، ولمـا سـقط هـو، ربمـا لمـا سـقط إلا السـاقطون..

.. وذات يـوم، ذات شـهر، ذات سـنة، سـتطير كلمـاتي مـن أوراقهـا، سـتخرج مـن الصفحـات البيـض كالمـارد مـن القمقـم وتتطايـر في الهـواء، تـارة تصـير بلبلاً يصـدح، وأخـرى تصـير كنارياً يغـرد، أو نورسـاً يحلـق، أو هدهـداً يغـار، أو صقـراً يحـارب..

.. وعندمـا تـأتي الشـياطين لتؤزهـم أزاً، سـتأتي كلمـاتي لتحـارب، وفـوق كل رأس سـيكون هنـاك تلـك المعركـة.. وتلـك الحـرب.. وهـي معركـة مـن المؤسـف أني لـن أكـون هنـاك لأترقـب نتائجها..

وفي تلـك المعركـة الغامضـة الفاصلـة سـأحتاج إلى دعائـك... فمـد يـدك وادع لي... يـا صديـق.

2002/6/21